﴿دراسة مختصرة لما تضمنته الأجزاء التي حُققت﴾

توطئة:

إن من المعلوم والمسلَّم به أن هذا الدين قد كمُل من كل وجه، سواء من حيث العقائد، أو من حيث العبادات، أو من حيث المعاملات، أو من حيث السلوك والأخلاق، أو غير ذلك، قال اللّه -عزوجل-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِيناً﴾(1)، فلم ينتقل رسول اللّه -ﷺ- إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن أقام اللّه -تعالى- به الحجة، وأبان به المحجة،، وتلك نعمة كبرى، ومنة عظمى، فلله الحمد والشكر والمنة، وجزى اللّه نبينا محمداً خير ما جزى نبياً عن أمته.

ومن النعم العظيمة -أيضاً- أن اللّه -تعالى- قد تكفل بحفظ هذا الدين، فحفظ هذا القرآن العظيم من أيّ تحريف أو تصحيف، ومن أيّ زيادة أو نقص، قال اللّه -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(2)، وإن مِن حِفْظ القرآن حِفْظ ما يبيّنه ويوضحه، وهو السنة، ذلك الوحي الثاني، إذ بدونها لا يمكن لأحد أن يعرف جملة كبيرة من مسائل الاعتقاد، وبدونها لا يمكن معرفة أمور كثيرة من الحلال والحرام، بل بدونها لا يمكن لأحد أن يعرف كيف يتعبد ربه بالصلاة والزكاة والصيام

(1) جزء من الآية -٣-، سورة "المائدة.

(2) الآية -٩-، سورة "الحجر".

والحج وغير ذلك، وإذا أراد اللّه -تعالى- أمراً هيأ له أسبابه، فهيأ اللّه لحفظ القرآن والسنة أسباباً، فاختار -تعالى- هذا الجيل المبارك جيل الصحابة، واصطفاه لصحبة نبيه محمد -ﷺ-، ونشر دينه، وتبليغه من بعدهم، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[1]، فقام أولئك -رضي الله عنهم- بحمل هذه الأمانة العظيمة على أكمل وجه، وأدوا هذه المهمة الجسيمة خير أداء، وبذلوا في سبيل ذلك جهوداً عظيمة مشكورة، وقدموا أعمالاً جبارة مذكورة، يدفعهم الطمع في مرضاة اللّه -عزوجل- وجنته، والخوف من سخطه وناره.

ولما انقرض عصر الصحابة -رضي الله عنهم-، وإذا بالأمانة ينتظر حملها جيل آخر، قد اصطفاه اللّه -تعالى-، وهيأه لحملها، وهم التابعون، فقاموا بذلك خير قيام، وهكذا لا ينقرض جيل حتى يظهر جيل آخر، قد رُزق إيماناً قوياً، وعلماً نافعاً، وعملاً صالحاً، فيحمل هذه الأمانة العظيمة بكل إخلاص وجد، ويدفعها لمن بعده، بل إن هذا الأمر مستمر إلى قبيل قيام الساعة، وهذا من عظيم فضل اللّه -عزوجل- على هذه الأمة، ومن حكمته البالغة، لأن نبينا محمداً -ﷺ- آخر الأنبياء، فلا نبي بعده، ولا كتاب منزل بعد هذا القرآن المجيد، فأمته -ﷺ- باقية إلى يوم القيامة، لأنها آخر الأمم، فاقتضت رحمة اللّه -تعالى- الواسعة، أن هيأ في كل عصر من يحمل هذا الدين كتاباً وسنة، ويبلغه للناس، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2]، إذ هو الدين الصالح لكل زمان ومكان.

---

(١) جزء من الآية -٦٨-، سورة "القصص".

(٢) جزء من الآية -١٦٥-، سورة "النساء".

ولما ظهرت الأهواء، والمذاهب المذمومة، والفرق الضالة، مع الكذب في الحديث، والضعف في الرواية، ازداد حمل الأمانة ثقلاً، واشتدت المسؤولية صعوبة، ولكن اللّه -عزوجل- قد هيأ برحمته وحكمته عند ظهور تلك المصائب والفتن من وقف لها بالمرصاد، فإذا بأهل السنة والجماعة قد استعدّوا لحمل هذه الأمانة بكل قوة، فاهتموا بالإسناد اهتماماً عظيماً، وقعَّدوا القواعد العلمية المبرأة من كل هوى لتصحيح الحديث وقبوله، أو لتضعيفه ورده، ووضعوا الضوابط السليمة الرصينة لتعديل الرواة وتوثيقهم، أولتجريحهم وتضعيفهم، كل ذلك لنشر هذا الدين، وحفظه والذب عنه، وحمايته من كل شائبة ودخيل، وهذا داخل في عموم الآية السابقة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]،

وإن من الجهود المباركة وما أعظمها، ومن الكتب النفيسة وما أكثرها، هذا الكتاب الذي بين أيدينا، **(ذم الكلام وأهله)**، لشيخ الإسلام الإمام أبي إسماعيل عبد اللّه بن محمد الأنصاري الهروي -رحمه اللّه تعالى-، والذي هو ثمرة يانعة من ثمار الجهود المخلصة التي بذلها علماء السلف الصالح للذب عن حياض العقيدة الصحيحة للأمة، وتدعيم ركائزها، وتطهير جنباتها من أرجاس البدعة والمروق، والإسهام في حفظها نقية كما جاءت في كتاب اللّه -تعالى-، وسنة رسوله -ﷺ-، فقد ألف شيخ الإسلام -رحمه اللّه تعالى- كتابه هذا لإظهار عوار تلك الفرق الضالة، المخالفة لمنهج الكتاب والسنة،

(١) الآية -٩-، سورة "الحجر".

ولبيان زيغ تلك المذاهب المذمومة الشاذة عن مذهب السلف الصالح أهل السنة والجماعة، والتي انحرفت بسبب تسلل هذا الجرثوم الخطير إلى جسدها، ألا وهو علم الكلام، فأعمل فيه فتكاً وتدميراً، فحاد بها عن فطرتها السليمة، وطمس على بصيرتها، وشلّ تفكيرها، فكان من نتائج هذا أن ردتْ أو أولتْ بكل صراحة ووقاحة نصوصاً كثيرة من الكتاب والسنة، وضربت بها عرض الحائط، لأنها لا تتناسب مع فكرها السقيم، وعقليتها المريضة.

وقد ابتدأ المؤلف -رحمه اللّه تعالى- كتابه الجليل هذا ببيان كمال هذا الدين وتمامه، في إشارة إلى أن هذا العلم الذميم علم الكلام أمر دخيل على هذا الدين القويم، وجسم غريب على بنيانه المتين.

ثم ساق بعد هذا النصوص العظيمة الدالة على أن الواجب على كل مسلم رضي باللّه رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد -ﷺ- نبياً، أن يلتزم بما جاء في الكتاب والسنة، على وفق فهم السلف الصالح لها، وفي مقدمتهم صحابة رسول اللّه -ﷺ، ورضي الله عنهم-، فإن هذا الالتزام هو السبيل الوحيد لسعادته، وسلامته في الدنيا والآخرة، لا سيما ما يتعلق بالاعتقاد، إذ أن هذا الأمر هو أهم الأمور على الإطلاق وأخطرها، وهذا الأمر مع وضوحه وجلائه في هذا الدين، -وللّه الحمد والشكر-، إلا أن أعداء الملة يجدّون وينشطون في هذا الميدان -أعني ميدان الاعتقاد-، ما لا ينشطون في غيره، فيسعون بكل طاقة وجهد لإثارة الشُّبه، والتشكيك في هذا الدين وعقيدته، وكما أن الالتزام بمنهج السلف الصالح هو سبيل السعادة، فكذلك الانحراف عنه، برد نصوص

الوحيين، وتحكيم ذلك العقل الضعيف في تلك النصوص، والتقدم بكل قبح بين يدي اللّه ورسوله، كما هو شأن أهل الكلام، فإن ذلك كله سبب لضلاله وشقائه في الدنيا والآخرة، بل إن هذا هو سنة اللّه -تعالى- في خلقه، فقد قال رسول اللّه -ﷺ-: (**دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**)(١).

ثم ذكر المؤلف نصوصاً تدل على أن نبينا محمداً -ﷺ- كان يخاف على أمته خوفاً عظيماً من أصحاب هذا المنهج المنحرف، والسلوك الشاذ، وهذا من عظيم حرصه عليها، ورأفته ورحمته بالمؤمنين، لأن ضرر هؤلاء بالغ الخطورة، وأذاهم شديد التأثير، وجربهم سريع العدوى، إلا من حفظ اللّه -تعالى-، وقليل ما هم، هذا كله فضلاً عن أن هذه المباديء الضالة، والمناهج الشاذة، والأفكار المنحرفة لا تقتصر غالباً على فترة زمنية محددة، تندرس بانقضائها، بل تظل الأجيال تتناقلها جيل بعد جيل، إذ أن لكل قوم وارث، وهذا مما يجعل خطرهم عظيماً، وشرهم مستطيراً، ألا ترى إلى الديانات الضالة، والملل المنحرفة التي أُخترعت منذ آلاف السنين كاليهودية والنصرانية والبوذية والهندوسية وغيرها، ألا ترى كيف هي باقية إلى الآن؟؟.

ثم ذكر المؤلف بعد هذا نصوصاً تفيد خطورة التكلف في الكلام، والتقعّرفيه، وتحريف الكلم عن مواضعه، سواء كان بتحريف معناه،

---

(١) رواه البخاري -٧٢٨٨-، كتاب "الاعتصام"، باب "الاقتداء بسنن رسول اللّه ﷺ"، (٢٥١/١٣).

وما أكثره عند أهل الأهواء، أو كان بتحريف لفظه، وهذه الأمور من السمات البارزة لأهل الكلام، بل هي أبرز سماتهم، وأقبح صفاتهم.

ثم كان من المناسب أن ذكر المؤلف بعد هذا النصوص الدالة على ذم المجادلة والمخاصمة بالباطل، أو بما لا علم له به، إذ أن في هذا ما لا يخفى من تزيين الباطل، وتقوية الشر، وفي المقابل تشويه صورة الحق وأهله، بل إنه لعظم الآثار السيئة للمجادلة؛ ساق المؤلف نصوصاً ترغّب في ترك المجادلة والمماراة وإن كانت بحق، لأن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح، فإن الخصم إذا جودل بحق سيورد ما يقدر عليه من شبه وإشكالات قد تحيّر صاحب الحق، بل قد تؤثر عليه، أو على السامعين.

وإن من أشد أنواع المجادلة، وأعظمها فتكاً أن يُتخذ من نصوص هذا القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1]، يُتخذ منها ستاراً لنشر الضلال، وزخرفة الباطل، وتزيين الشر، وذلك إما بصرف النص عن معناه الصحيح إلى معنى باطل لا يؤيده إلا الهوى، وإما باتباع نصوص متشابهة، كما وصف اللّه -عزوجل- أولئك بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[2]، وقد حذرنا نبينا الرؤوف الرحيم -ﷺ- من أولئك، وذلك في أحاديث كثيرة، قد ساق المؤلف -رحمه اللّه تعالى- جملة منها، وقد يتعجب

---

(١) آية -٤٢-، سورة "فصلت".

(٢) جزء من الآية -٧-، سورة "آل عمران".

الجاهل، وتصيبه الدهشة البالغة إذ كيف يكون في هذا القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل؛ كيف يكون فيه حجة لأصحاب المذهب الحق والمنهج السليم، ويكون فيه حجة لأهل الباطل والأفكار المنحرفة؟؟، والجواب: كلا واللّه لا يُتصور ذلك، فضلاً عن وقوعه، فربنا -عزوجل- يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1]، ولكن قام أصحاب الأهواء ودعاة الباطل بتحريف الكلم عن مواضعه، وصرف النص عن المعنى المراد إلى معنى باطل غير مراد البتة، فعند ذلك عُرف السبب فبطل العجب!.

ثم أشار المؤلف -رحمه اللّه تعالى- إلى أمر عظيم وخطب جلل، وهو ما نادى به جمع من أهل الأهواء وأرباب البدع من إنكار حُجية السنة، وعدم جعلها مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، بل يكتفى بالقرآن وحده فقط، لأن فيه تبياناً لكل شيء، كما قال اللّه -عزوجل-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، وهذه طعنة أخرى، ونكبة جديدة نكب بها هذا الدين العظيم، ولكن اللّه -تعالى- حافظ دينه، وناصر أوليائه، فرُدت تلك الطعنة في نحور أصحابها، وظهرت دسائسهم، وانكشفت سوءاتهم، وبان مكرهم وكيدهم لهذا الدين، وكان رسول اللّه -ﷺ- قد أخبرنا عن أولئك، وحذرنا منهم، فوقع ما أخبر به -ﷺ-، وجاء مثل فلق

(١) آية -٨٢-، سورة "النساء".

(٢) جزء من الآية -٨٩-، سورة "النحل".

الصبح، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[1]، وإن تلك الدعوى الباطلة، والمقولة الجائرة؛ قديمة جداً، إذ بدأت تطل بوجهها القبيح منذ القرن الثاني الهجري[2]، ولا يزال أتباعها ودعاتها إلى اليوم[3].

ولعل سائلاً يسأل: ما أراد هؤلاء بتلك المقالة؟؟.

والجواب واضح، لا يختلف فيه اثنان، ولا تنتطح فيه عنزان!!، فمرادهم الكيد المدسوس والمكر الخفي بهذا الدين وأهله، إنه السم المخلوط بالعسل، إذ أراد هؤلاء أن يتفرغوا لإملاء عقائدهم المنحرفة، وتشريعاتهم المعوجة، المبنية على ما يوافق أهواءهم، ويرتضيه ساداتهم وكبراؤهم، دون التزام بالسنة، بل دون التفات إليها، ولسان حالهم: "كذاب اليمامة أحب إلينا من صادق مضر"!!، وإلاّ لو سُلم جدلاً أن تلك المقولة قد صدرت عن حسن ظن، واجتهاد خاطيء، لرجعوا إلى صوابهم عند تأمل آية واحدة فقط، فضلاً عن عشرات الآيات، بل مئاتها، قد تضمنت الأمر من الله -عزوجل- بطاعة رسول الله -ﷺ-، ووجوب تحكيمه في كل أمر، والرجوع إليه عند التنازع والاختلاف في أي شأن، من تلك الآيات: قول الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[4]، وقوله عزوجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ

---

(١) الآيتان -٣،٤-، سورة "النجم".

(٢) "السنة ومكانتها في التشريع" ص١٤٣.

(٣) المصدر السابق، ص١٥٣.

(٤) جزء من الآية -٨٠-، سورة "النساء".

فَٱنتَهُواْ ﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[٤]، وغير هذه الآيات كثير جداً.

فكيف إذاً تتم الطاعة والتحكيم والرجوع عند التنازع إن لم يكن المراد بذلك ذات الرسول -ﷺ- مادام حياً، ثم سنته بعد وفاته؟، كذلك لو كانت تلك المقولة الضالة المتمثلة في نبذ السنة وطرحها؛ لو كانت صادرة عن حسن نية، مع أن هذا بعيد جداً، أبعد مما بين الثرى والثريا، لكن لو كان كذلك لأقلعوا عنها فوراً، وظهر لهم بطلانها قبل استكمالها، حينما يتأملون تلك الأوامر الكثيرة الواردة في كتاب الله -عزوجل-، والتي جاءت مجملة دون تفصيل أو بيان، ودون توضيح للكم والكيف، كالأمر بالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وغير ذلك، والتي لا مبيّن لها ولا موضّح إلا رسول الله نبينا محمد -ﷺ- بقوله أو فعله أو تقريره، وهذا ما يسميه أهل العلم السنة، ولكن ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[٥]، فطاشت -ولله الحمد- سهامهم، وخابت مساعيهم، وبان الحق وانكشف

---

(١) جزء من الآية -٧-، سورة "الحشر".

(٢) جزء من الآية -٩٢-، سورة "المائدة".

(٣) آية -٦٥-، سورة "النساء".

(٤) جزء من الآية -٥٩-، سورة "النساء".

(٥) جزء من الآية -٤٦-، سورة "الحج".

الغطاء، وهذه صورة من الصور العظيمة الكثيرة لحفظ اللّه -تعالى- لدينه وكتابه، فلله الحمد والشكر والمنة.

كما أن هناك طائفة أخرى تشبه هذه في تنكب الطريق الصحيح، وتسبح مثلها في تلك المياه العكرة المنتنة، وإن كانت أقل لائمة من سابقتها، وأخف غائلة، ألا وهي من ينكر حجية أحاديث الآحاد، ويرى عدم الأخذ بها في باب الاعتقاد، وما ذنب هذه الأحاديث إذا كانت ثابتة، صحيحة السند والمتن، سالمة من كل شذوذ وعلة؟، ما ذنبها لكي تُرد ولا يُعمل بها، ولا يعتقد ما دلت عليه؟، لا ذنب لها إلا اتباع الهوى، والتقدم القبيح بين يدي اللّه ورسوله، إذ المتواتر والآحاد كله وحي، داخل في عموم قول اللّه -تعالى-: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(1)، وعلى هذا فإن أحاديث الآحاد حجة قوية في كل باب، ومن أهم الأبواب باب الاعتقاد، ما دامت صحيحة.

ثم ساق المؤلف بعد ذلك باباً عظيماً جداً، وهو "التحذير من معارضة الحديث بالرأي"، وقد أطال النفس فيه إطالة كبيرة، وحُق له ذلك، لأنه يتضمن أمراً ذا خطورة بالغة، قد وقع فيه جميع أهل الأهواء والبدع بلا استثناء، وهو الرد على رسول اللّه -ﷺ- قوله بآرائهم الهالكة، وكأنهم أعلم بمراد اللّه -تعالى- من رسوله -ﷺ-، وفي هذا اتهام لرسول اللّه -ﷺ- بالجهل وعدم المعرفة، أو بالكتمان والخيانة، وهو بالتالي رد على اللّه

(1) الآيتان -٣،٤-، سورة "النجم".

-عزوجل-، لأن الكل وحي من الله -تعالى-، ونسي هؤلاء أو تناسوا على من يردون، ومن يخاصمون ويجادلون.

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

فقاموا بكل صراحة ووقاحة، بعيدة عن أي خجل أو استحياء، فأنكروا أموراً في العقيدة عظيمة، جاءت نصوص كثيرة بإثباتها والدلالة عليها تصريحاً لا تلميحاً، ومنطوقاً لا مفهوماً، ومن تلك الأمور إنكار بعض أهل الأهواء رؤية الله -عزوجل- في الآخرة، وقول بعضهم بإنكار الميزان والصراط يوم القيامة، وأن الميزان إنما هو كناية عن العدل، والصراط كناية عن طريق الجنة وطريق النار، كما أنكر بعضهم أنواعاً من الشفاعة، كالشفاعة لأقوام دخلوا النار أن يُخرجوا منها قبل أن يُقضى ما عليهم، فقالوا: لا يجوز لمن دخل النار أن يخرج منها، وغير هذا كثير، محكّمين هذه العقول الضعيفة بل المنحرفة المريضة في تلك الأمور الغيبية التي لا يجوز بحال إدخال العقول فيها، وقد أثنى الله -تعالى- على عباده المتقين بأعظم صفة من صفاتهم، ألا وهي الإيمان بالغيب، فقال -عزوجل-: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[1]، وقد بدأ بها لأهميتها، وعظيم أثرها على صاحبها، إذ يجد فيها من السعادة والطمأنينة والراحة ما لا يوصف، فطوبى لمن اتصف بها، وياويل من حرمها.

وسبحان الله!، كم من البون الشاسع، والفرق العظيم، بين موقف أولئك

(١) الآيتان -٢،٣-، سورة "البقرة".

أصحاب الأهواء من السنة الصحيحة، وموقف السلف الصالح من الصحابة -ﷺ- ومن بعدهم منها، فإن أولئك نبذوها وراءهم ظهرياً، ولم يقيموا لها وزناً، أما هؤلاء فقد حفظوها وحافظوا عليها قولاً وعملاً ودعوة، وعظموا شأنها، وصانوا جنابها من كل زائغ كذاب صوناً يدعو إلى الإعجاب والإجلال، بل إنهم وقفوا موقفاً حازماً وصارماً من أناس فضلاء، اجتهدوا فقالوا بخلاف السنة، في أمور ومسائل يسيرة لا تمت بصلة إلى العقيدة، التي هي أهم وأعظم وأخطر، وقد ساق المؤلف -رحمه اللّه تعالى- عدة أمثلة من تلك المواقف العجيبة، والمظاهر الفذة العظيمة، منها موقف ابن عمر -رضي اللّه تعالى عنهما- من ابنه عبيد اللّه -وهو من ثقات التابعين-، حينما قال عبيد اللّه بمنع النساء من الخروج إلى المسجد، لما حدّثه أبوه بنهي النبي -ﷺ- عن ذلك، فقام ابن عمر عندئذٍ بزجر ابنه، والتغليظ له في القول، تعظيماً لأمر السنة، وتوقيراً لشأن الرسول -ﷺ-[1]، ومنها موقف عبادة بن الصامت من معاوية بن أبي سفيان -ﷺ-، حينما رخّص معاوية ببيع آنية من فضة، فبيعت بأكثر من وزنها، فأخبرهم عبادة أن النبي -ﷺ- قد نهى عن ذلك، وخالفه معاوية، محتجاً بأنه لم يسمع هذا من رسول اللّه -ﷺ-، فغضب عبادة، وقال: "لنحدِّثنَّ ما سمعنا من رسول اللّه -ﷺ-، وإن رغم أنف معاوية!!"[2]، وغير ذلك كثير.

(١) رواه مسلم -٤٤٢-، كتاب "الصلاة"، باب "خروج النساء إلى المساجد..."، -١٣٥-، -١٣٨-، -١٣٩-، -١٤٠-.

(٢) رواه مسلم -١٥٨٧-، كتاب"المساقاة"، باب "الصرف وبيع الذهب والورق نقداً"، -٨٠-.

هذا ملخص لما تضمنه الجزءان -الأول والثاني- من هذا الكتاب الجليل "ذم الكلام وأهله".

أما الأجزاء الثلاثة التالية فهذا ملخص لما تضمنته:

إن التشدد والتكلف في أمور الدين وشرائعه ليس من تعاليم الإسلام، وليس من هدي خير الأنام نبينا محمد -ﷺ-، بل ورد عنه النهي الصريح عن هذا في نصوص كثيرة، حتى وإن كان هذا في مجال العبادة، كمن زُين له -مثلاً- ترك المسح على الخفين، وترك قصر الصلاة في السفر، ومواصلة الصيام، بل حتى وإن كان في ترك أمور مباحة تقرباً إلى الله -تعالى-، كترك أكل اللحم الحلال مثلاً، وما ذاك النهي عن التشدد والتنطع بكافة أنواعه وصوره إلا دلالة قوية على عظم هذا الدين وكماله، ووسطيته بين الإفراط والتفريط، فهو الدين الحق الصالح لكل زمان ومكان، ولا غرو فهو تشريع العزيز الحكيم، خالق الخلق، والعالم بما ينفعهم وما يضرهم سبحانه وتعالى، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1]، كذلك ما ذاك النهي عن التكلف إلا دلالة ظاهرة قوية على ما يحمله من أخطاء عظيمة، وما يترتب عليه من مخاطر جسيمة تصيب الفرد والمجتمع، إذ أن في التكلف تحميل لهذه النفس الإنسانية الضعيفة ما يشق عليها، وقد تعجز عنه ولو بعد حين، كذلك من الآثار السيئة للتكلف أن المتكلف يقع فيه نفسه أنه بهذا التشدد

(١) جزء من الآية -٥٠-، سورة "المائدة".

والتكلف قد وصل إلى مرتبة يحبها اللّه -عزوجل-، وبالتالي يؤمل عليه الثواب العظيم، والأجر الجزيل، بل قد يقع في نفسه -بإغراء من الشيطان وإغواء- أنه خير من رسول اللّه -ﷺ- الذي لم يكن يفعل هذا، وهذه الظنون والأوهام الباطلة تدفعه إلى التحمس لهذا التكلف، والدفاع عنه، وتربية أولاده عليه، ودعوة الناس إليه، وإذا كان هذا في بيان شيء مما يفرزه داء التكلف والتشدد إذا دخل في مجال العبادة، وكفى بذلك ضرراً بالغاً، وفساداً عظيماً، فما بالك بدخول هذا الداء العضال، والمرض الفتاك في مجال العقيدة، التي هي أدق وأخطر، وأجل وأعظم من غيرها؟؟، لاشك أنه سيفرز أوراماً سرطانية خبيثة، قد تهلك صاحبها، هذا وقد دخل هذا الداء الخبيث في كثير من مباحث العقيدة، إن لم يكن في كلها، ومن الأمثلة على ذلك ما ذهب إليه من غلا في إثبات الصفات لله -عزوجل-، وتكلف في هذا، حتى جعلها كصفات خلقه سواء بسواء، سبحان اللّه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وفي الطرف المناقض لهؤلاء يوجد نفاة الصفات، الذين اعتقدوا التشبيه أولاً، ثم قادهم ذلك التفكير السقيم إلى الغلو والتكلف في التنزيه، فقالوا بنفي جميع الصفات عن اللّه -تعالى-، لأنها تُشْبه صفات المخلوق، فعطلوا اللّه -عزوجل- عن صفات الكمال والجلال التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله محمد -ﷺ- فهؤلاء شبهوا أولاً، ثم عطلوا ثانياً، ففروا من تشبيه اللّه بالموجود، فلما عطلوا اللّه -تعالى- عن صفات الكمال؛ شبهوه بالمعدوم، على أن إثبات الصفات الواردة لله -عزوجل- في الكتاب والسنة لا تشبيه

فيه البتة، إذ أن صفات الخالق -تعالى- على ما يليق بجلاله وعظمته وكبريائه، وصفات الخلق على ما يناسب ضعفهم وعجزهم، وإن كانت صفات اللّه -تعالى- وصفات خلقه قد تتفقان في اللفظ، فالاشتراك في اللفظ لا يستلزم التشبيه، والأدلة على ذلك كثيرة جداً، تأمل قول اللّه -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[1]، ثم قارنه مع قوله -سبحانه-: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[2]، وتأمل قول اللّه -تعالى-: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3]، ثم قارنه مع قوله -سبحانه-: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾[4]، وتأمل قول اللّه -تعالى-: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[5]، ثم قارنه مع قوله -سبحانه-: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾[6]، وتأمل قول اللّه -تعالى-: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[7]، ثم قارنه مع قوله -سبحانه-: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾[8]، وتأمل قول اللّه -تعالى-: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[9]، وقارنه مع قوله

---

(١) جزء من الآية -٥٨-، سورة "النساء".

(٢) الآية -٢-، سورة "الإنسان".

(٣) جزء من الآية -٢٠٩-، سورة "البقرة".

(٤) جزء من الآية -٥١-، سورة "يوسف".

(٥) جزء من الآية -٦٤-، سورة "المائدة".

(٦) جزء من الآية -٢٧-، سورة "الفرقان".

(٧) جزء من الآية -٣-، سورة "يونس".

(٨) جزء من الآية -١٣-، سورة "الزخرف".

(٩) جزء من الآية -٢٢-، سورة "الفجر".

-سبحانه-: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾[1]، وتأمل قول الله -تعالى-: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[2]، وقارنه مع قوله -سبحانه-: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾[3]، عند ذلك يظهر لك الحق، ويزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

وقد اشترط السلف الصالح أهل السنة والجماعة -رحمهم الله تعالى أجمعين- اشترطوا لتحقيق الإيمان الصحيح بصفات الله -سبحانه وتعالى- ثلاثة شروط:

(أ) أن يوصف الله -تعالى- بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله -ﷺ- على الحقيقة.

(ب) أن يُعتقد اعتقاداً جازماً لاشك فيه أنه لا مشابهة ولا مماثلة بين حقيقة صفات الله -تعالى-، وصفات خلقه، على حد قول الله -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[4]، وقوله -عزوجل-: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[5].

(ج) عدم محاولة تكييف أيّ شيء من صفات الله -تعالى-، بل يجب اليأس الكامل من هذا، وقطع الطمع عن إدراك شيء منها، بل يُكتفى باعتقاد أنها صفات في غاية الكمال، تليق بجلال الله وعظمته سبحانه وتعالى.

---

(١) جزء من الآية -٥٨-، سورة "يوسف".

(٢) الآية -٢٧-، سورة "الرحمن".

(٣) جزء من الآية -٩٣-، سورة "يوسف".

(٤) جزء من الآية -١١-، سورة "الشورى".

(٥) جزء من الآية -٦٥-، سورة "مريم".

وبهذه الشروط الثلاثة العظيمة يسلم المؤمن من ثلاثة مزالق خطيرة مهلكة، إذ بالشرط الأول يسلم من مزلق التعطيل، وبالشرط الثاني يسلم من مزلق التشبيه، وبالشرط الثالث يسلم من مزلق التكييف، وبهذا يكمل إيمان العبد بهذا الباب العظيم، باب أسماء اللّه -تعالى- وصفاته، ذلك الباب الذي ضلت فيه أفهام كثيرة، وزلت فيه أقدام عديدة، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

ومن الأمثلة أيضاً على دخول داء التكلف في باب الاعتقاد، دخوله في باب خطير جداً، وهو باب القضاء والقدر، فقد غلا بعض أهل الأهواء في إثبات القضاء والقدر غلواً سلبوا معه كل مشيئة للعبد واختيار، فجعلوه يقوم بجميع أعماله الإرادية تلقائياً كالآلة، بل شبهوا حركاته بحركات المرتعش، وبأنها كالريشة في مهب الريح، لذا سُموا بالجبرية، لأن العبد عندهم مجبور على فعل أي عمل مهما كان، صغيراً أو كبيراً، كما يُسمون بالقدرية الغلاة، وقابلهم فريق غالٍ آخر، لكنه غلا في نفي القدر، وقال: إن العبد يخلق جميع أفعاله الإرادية بنفسه، دون مشيئة اللّه -تعالى- وقضائه وقدره، فأثبتوا أكثر من خالق مع اللّه -تعالى-، لهذا سُموا بمجوس هذه الأمة، وهؤلاء يعرفون بالقدرية، أو بالقدرية النفاة.

كذلك من الأمثلة على الغلو في باب الاعتقاد -وما أكثرها-، ما يتعلق بأهوال القبور، وأحوال أهلها، حيث يُغلا في الإثبات فتُجعل حياة أهل القبور في قبورهم كحياتهم في الدنيا، أو يُغلا في النفي فيُنكر جميع ما يحدث للأموات، من فتنة ونعيم أو عذاب، لأنه لا يمكن للعقل المريض الذي تنطع

وتكلف أن يستسيغ القول بحياة خاصة للأموات، تُسمى الحياة البرزخية، يُفتنون فيها ويُنعَّمون أو يُعذَّبون على حسب حالهم.

وغير هذا من الأمثلة كثير جداً.

وإن التكلف والتنطع والتشدد في أي باب من أبواب الدين، لهو الخطوة القوية لولادة البدع ونشأتها، وهو الأرض الخصبة والميدان الفسيح لترعرعها وشيوعها وانتشارها ورواج سوقها، وبالتالي هو السهم الصائب لقتل السنن ووأدها، وقد أحدث أولئك المتكلفون المتنطعون عقائد وشعائر وعبادات وأذكار واحتفالات ما أنزل الله -تعالى- بها من سلطان، ولم يرد فيها عن رسول الله -ﷺ- أي إرشاد أو بيان، وهم مع كل ذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ولعظم خطر البدع أياً كانت على الفرد والمجتمع، ولكثرة آثارها المدمِّرة للأمة، لهذا كله جاءت النصوص العظيمة في الكتاب والسنة، والتي لا تحصى كثرة، جاءت تتضمن التحذير من البدع، والتخويف من عواقبها السيئة في الدنيا والآخرة، وتبيِّن أن العمل المبتدع مردود على صاحبه، بل ومعاقَب عليه، في الوقت الذي كان يؤمل أن ينال عليه أجراً عظيماً، ليس هذا فحسب، بل إن على المبتدِع مثل أوزار من تبعه واقتدى به في بدعته، حتى وإن كان قصد التابع أو المتبوع -على زعمه- سليماً، والنية حسنة، فالغاية لا تبرر الوسيلة المحرَّمة وتُحلُّها، والدين لا يبنى على الأهواء والاختراعات، بل إن العمل مهما كان لابد له من شرطين يجب توفرهما ليكون عملاً صالحاً، يُرجى الثواب عليه، وهما:

١- أن يكون العمل خالصاً للّه -عزوجل- وحده، لا شريك له.

٢- وأن يكون العمل صواباً، موافقاً لهدي رسول اللّه ﷺ.

قال اللّه -عزوجل-: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَـٰلِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[١]، وعليه فإن العمل وإن قلَّ، مادام على الطريق الصحيح فإن صاحبه ينتظره الثواب الجزيل من اللّه تعالى، واللّه يضاعف لمن يشاء، أما العمل المبتدَع وإن كَثُرَ، قد شغل فيه المبتدِع عامة الساعات والأيام، بل الشهور والأعوام، فهو -والعياذ باللّه- جهد ضائع، قد ذهب سعيه ووقته وماله هباء منثوراً، بل صار وبالاً عليه.

وهنا يحسن التنبيه إلى أن من أعظم الأسباب الداعية إلى الإفراط والغلو، أو إلى التفريط والتقصير، لا سيما في باب الاعتقاد؛ إدخال ذلك العقل الضعيف في نصوص الوحي، والمحاولة الجادة البائسة اليائسة لتكييف الأمور الغيبية، وتطبيقها على الأمور المشاهدة المحسوسة، للغلو في إثباتها أو لإنكارها، وهما -أعني الإفراط والتفريط- يدخلان تحت ذلك العلم الذميم (علم الكلام)، إذ هو: علم العقائد القائم على الأدلة العقلية فقط، ويتضمن الرد والمحاجة عن تلك العقائد بتلك الأدلة[٢]، والغلو والتقصير ليس من صفات الراسخين في العلم وسماتهم، الذين أثنى اللّه -عزوجل- عليهم

(١) جزء من الآية الأخيرة من سورة "الكهف".

(٢) انظر "مقدمة ابن خلدون" ص٨٢١.

ووصفهم بقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾[1]، بل الغلو والتقصير شأن من لم يؤمن بالغيب، بل يبادر إلى التساؤل بكيف، ولماذا، حينما يطرق سمعه نص من الكتاب العزيز، أوالسنة الصحيحة، وإن للشيطان الرجيم وأتباعه من شياطين الإنس والجن لهم اليد الطولى، والباع العريض في إثارة هذه التساؤلات، وإظهار هذه الشبهات، ﴿يُوحِى بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورًا﴾[2]، وقد نبَّه رسول اللّه -ﷺ- أمته إلى هذا الخطر، وحثَّها على عدم إلقاء بالٍ لتلك التساؤلات والشبهات، وأمر بطرحها فوراً، وعدم الاسترسال فيها، بل يجب ترك البحث عن أجوبة لها، مع الاستعاذة الدائمة باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم، وتلك أسباب عظيمة أوصى بها رسول اللّه -ﷺ-، الحريص على أمته، لتنجيهم وتحفظهم -بإذن اللّه تعالى- من آثار هذه التساؤلات المؤذية، ونتائج هذه الشبه المردية، بل نهى رسول اللّه -ﷺ- عن إثارة هذه الشبه والاستشكالات، فقد تكون سبباً لفتنة بعض الناس في دينهم القويم، وانحرافهم عن فطرتهم السليمة، نتيجة أمور لا يُحتاج إليها، بل لا خير فيها.

كذلك من أعظم أسباب ذلك الغلو وذلك التقصير؛ بل هو أعظمها على الإطلاق؛ ألا هو الاشتغال والاهتمام بأقوال أهل الكتاب، والنظر في كتبهم المحرَّفة نظر تأمل وتفكر، وبالتالي النظر في كتب غيرهم من أهل الإلحاد

---

(١) جزء من الآية -٧-، سورة "آل عمران".

(٢) جزء من الآية -١١٢-، سورة "الأنعام".

والزندقة من باب أولى، وقد ازدادت الطينة بلة، بل ازدادت النار توقداً وسعيراً، حينما تُرجمتْ كتب أهل الزيغ والضلال إلى اللغة العربية، وذلك من لغات شتى، تحمل نظريات متعددة، وفلسفات متباينة، كالرومية واليونانية والهندية والفارسية وغيرها، لكنها اتفقت فيما تضمنته من ضلال وانحراف، وإفساد للفطر، وتدمير للأفراد والأمم، على أنه لا حاجة لتلك الكتب، ففي كتاب ربنا -عزوجل-، وسنة نبينا محمد -ﷺ- ما يكفي ويشفي، وفي تلك الكتب ما يُضل ويشقي، وإن كان فيها شيء من صواب -وهو قليل جداً بجانب فسادها العظيم وشرها المستطير- فقد جاء ديننا -و لله الحمد والشكر- بأكمل منه، وأتم معنى، وأسهل عبارة، وأوضح دلالة، على أن هذه الترجمة تتضمن إشارة قدح ودلالة تنقُّص لهذا الدين العظيم، واتهام له بعدم الكمال، وأنه بحاجة إلى مزيد.

وقد جاءت النصوص العظيمة[1] تحذّر من النظر في كتب أهل الكتاب، وتنهى عن سؤالهم، وسؤال غيرهم من باب أولى، واللّه -عزوجل- قد فضَّل هذه الأمة، وخصَّها بخير كتاب، وأفضل رسول -ﷺ-، فلماذا يُستبدل الداء القاتل والسم الزعاف بالدواء الشافي والعسل المصفى؟؟، ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[2]، ومن العجب، بل واللّه من الجنون والحماقة! أن يُنظر في كُتب مَن ضل عن الصراط المستقيم، ويُسأل من

---

(١) انظر الباب الثالث عشر.

(٢) جزء من الآية -١٠٨-، سورة "البقرة".

انحرف عن سواء السبيل، فما في النار للظمآن ماء!!.

والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

وينبغي أن يكون المسلم اللبيب على علم بأن أعداء الدين من اليهود والنصارى والملحدين والمنافقين وغيرهم لما عجزوا عن القضاء على هذا الدين الحنيف بالسنان والمقاتلة، عمدوا إلى حربه عن طريق اللسان والمخادعة، فقاموا بكل ما يملكون من خطط ماكرة، وأساليب خبيثة، تارة عن طريق التشكيك بهذا الدين ومدى صلاحيته لكل زمان ومكان، وتارة عن طريق ضرب النصوص بعضها ببعض، وتارة عن طريق إثارة الشبه والاستشكالات المغرضة المضللة، خاصة في مجال العقيدة، لا سيما في الأبواب التي تحوي مسائل دقيقة وخطيرة، أو تبحث في أمور غيبية، كباب أسماء الله -تعالى- وصفاته، وباب القضاء والقدر، وباب الملائكة، وباب فتنة القبر ونعيمه وعذابه، وباب اليوم الآخر وأهواله، وأشراطه، والجنة والنار، وباب فضائل الصحابة -رضي الله عنهم-، وغير ذلك كثير، وتارة عن طريق وضع الأحاديث وافترائها على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتارة عن طريق إيجاد العداوة والبغضاء بين المسلمين، والتشجيع على ذلك، ومؤازرة الفرق الضالة التي تنتسب إلى الإسلام، وتارة بغير ما ذكر، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[1]، والقائل: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا

(١) جزء من الآية -١٠٩-، سورة "البقرة".

﴿يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1]، وقد بدأ أولئك في تنفيذ تلك الدسائس، وتطبيق تلك المؤامرات على هذا الدين وأهله، وذلك منذ عهد رسول اللّه -ﷺ-[2]، ولا يزالون حتى هذه الساعة، وإن كانوا قد نجحوا في إضلال كثير من الناس، وصدهم عن الصراط المستقيم، والانحراف بهم عن الفطرة السليمة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[3]، إلا أن اللّه -عزوجل- بفضله ورحمته ناصر دينه، وحافظ كتابه، ومؤيد عباده المؤمنين، وقد بشر رسول اللّه -ﷺ- أمته في أحاديث كثيرة صحيحة بأن هذا الدين بعقائده وشرائعه وتعاليمه وأحكامه باق إلى قيام الساعة[4]، تحمله طائفة إثر طائفة، وتطبقه عقيدة ومنهجاً وسلوكاً، وتدعو إليه، وتدافع عنه، وتحميه من كيد أعدائه، وتفضح مؤامراتهم ومخططاتهم، وهذه الطائفة هم أهل الحديث، أهل السنة والجماعة، الذين يسيرون على هدي رسول اللّه -ﷺ-، فلا يتقدمون بين يدي اللّه ورسوله، ولا يحكمون عقولهم وأهواءهم وآراءهم في نصوص الكتاب والسنة، وإذا قضى اللّه ورسوله أمراً لم يكن لهم الخيرة من أمرهم، وإذا بلغهم نص من الكتاب العزيز أو السنة الصحيحة، لم يجدوا في أنفسهم حرجاً منه، بل يسلموا تسليماً.

---

(١) آية رقم -٦٩-، سورة "آل عمران".

(٢) انظر رقم -٦٢٨-،-٦٣٠-، وما بعده، حتى نهاية -٦٤٢-.

(٣) جزء من الآية -١٣٧-، سورة "الأنعام".

(٤) انظر رقم -٦٦٠- وما بعده، إلى نهاية -٦٧٤-.

ونتيجة حتمية لهذا المنهج السليم، والموقف العظيم من السنة، اعتنى أولئك بالحديث اعتناء كبيراً جداً، وحين ظهرت الأهواء، وبدأ التفرق في الأمة، عندها أخذ أهل السنة والجماعة بالاهتمام بالإسناد اهتماماً عظيماً، وعوَّلوا عليه تعويلاً قوياً في قبول الأخبار وردها، وذلك بالنظر في رجال الإسناد وما عليه كل واحد من توثيق أو تضعيف، فكان من النتائج المباركة والثمار الطيبة لهذا العمل الجليل أن فصَّلوا درجات التعديل والتجريح، ووصفوا كل راو بما ظهر لهم من حاله، غير مبالين بمن يكون هذا الراوي، وابن من هو، فهذا ثقة، وهذا صدوق، وهذا سيء الحفظ، وهذا ضعيف، وهذا كذاب، وهذا مبتدع، إلى غير ذلك من الصفات والألفاظ التي لم تدخل فيها المجاملة ولا المحاباة، غير مبالين بقول جماعة من الحمقى والمغفلين: إن تجريح الرواة غيبة لهم!!، فسبحان اللّه!، كيف إذاً يتبين الحق من الباطل؟، وكيف يتضح الصحيح من الضعيف، والثابت من المكذوب؟، وكيف يتميّز دعاة السنة والخير والصلاح من دعاة البدعة والشر والفساد؟، ألا ترى إلى الرجل الحاذق الفطن، الذي يبحث عن شريك له في تجارة أو زراعة أو صناعة أو نحو هذا، كيف يستقصي أخبار شريكه قبل الاتفاق معه، ويبحث بكل جد واجتهاد عن مدى إخلاصه وأمانته، ويسأل كل من يظن أنه يعرف عنه شيئاً؟، إذاً فدين اللّه -تعالى- أحق بهذا الاستقصاء والبحث والسؤال، ولكن:

لا يشعرون بما في دينهم نقصوا ... جهلاً وإن نقصت دنياهُمُ شعروا

ووالله الذي لا إله غيره إن تجريح الرواة ما وضع تندراً وتفكهاً، بل إنما وضع لحفظ دين الله -تعالى- من كل دخيل عليه، وحماية لجناب السنة من كل سوء، وصوناً للحديث من كل زور، تقرباً واحتساباً وطمعاً في الثواب العظيم، تأمل قول الإمام سفيان الثوري فيما رواه عبد الرحمن بن مهدي عنه، قال: "مررت مع الثوري برجل، فقال: كذاب، والله لولا أنه لا يحل لي أن أسكت لسكت"[1].

وإذا كان لتعديل الرواة وتجريحهم الأثر القوي في حفظ السنة وصونها عن الكذب والدخيل، وبيان ما صح منها وما لم يصح، فإن تبيين البدع وتعيين أصحابها، وتعريف الناس بهم، وتحذيرهم منهم ومن بدعهم ومن مؤلفاتهم، هذا كله من باب أولى، صوناً لهذه العقيدة الصافية والمنهج السليم من كل شر وضلال، فيقال: فلان جهمي، وفلان رافضي، وفلان معتزلي، وفلان خارجي، وفلان صوفي، وفلان أشعري، وفلان قدري، وفلان جبري، وفلان قبوري، وغير ذلك، وكما أن تجريح الرواة ليس غيبة -كما سبق آنفاً- خلافاً لبعض المغفلين، فكذلك تعيين أصحاب الفرق الضالة والمناهج المنحرفة ليس تفريقاً لكلمة الأمة، وتشتيتاً لشملها، كما ينعق بهذا الضلال المبين بعض الناعقين، ويتفوّه به بعض المعتوهين، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[2]، فلا بارك الله في وحدة تضم فرقاً ضالة ومذاهب

(١) انظر رقم -٩٠٤-.

(٢) جزء من الآية -٥-، سورة "الكهف".

هدامة، ولا جمع الله شملاً يقوم على أفكار معوجة، وآراء مذمومة، فأي تفريق هذا الذي يزعمه الزاعمون؟، وأي تشتيت هذا الذي يتشدق به أولئك المفترون، الذين يريدون أن يصنعوا من عسل وسم طبقاً شهياً؟!، بل إن هذا هو المنهج الحق، والأسلوب الصحيح الذي سار عليه سلف هذه الأمة أهل السنة والجماعة ومن تبعهم بإحسان، وهو المحاولة الجادة المشكورة لجمع شمل الأمة، وتوحيد صفها، وهو التطبيق الفعلي السليم لأمر اللّه -عزوجل-: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[1]، وحبل اللّه تعالى هو القرآن الكريم، كما قاله بعض أهل العلم[2]، ألا ترى إلى كثرة وجود المحاجر الصحية في بلاد العالم، خوفاً من انتشار داء خطير، وانتقال أمراض معدية؟، فمرض العقيدة أشد فتكاً، وأعظم ضرراً، لذا فوجود محاجر لأصحاب المباديء الضالة، والمناهج المعوجة، والمفاهيم المنحرفة من باب أولى، وحاجته أدعى، لأن ذاك يمرض البدن فقط، أما هذا فهو يمرض الروح والبدن، ولكن:

أبنيَّ إن من الرجال بهيمة   في صورة الرجل السميع المبصر
فطن لكل مصيبة في ماله   وإذا أُصيب بدينه لم يشعر

ومنذ الصدر الأول للإسلام وأولئك السلف الصالح من الصحابة -رضي الله عنهم- جادون في نشر هذا الدين، وحمايته من كيد الكائدين، وعبث العابثين، يحثُّون الناس على الاستمساك بالسنة والعض عليها، وترك التفرق والاختلاف

---

(١) جزء من الآية -١٠٣-، سورة "آل عمران".

(٢) انظر "تفسير الطبري" (٤/٢١).

ومسبباتهما كالمراء والمجادلة، كما قاموا ببيان وتوضيح الخطر الشديد من البدع، وأن السلامة من البدع تعدل الهداية للإسلام، إذ أن كثيراً من البدع يكفر بها أصحابها، كما قاموا بالتنبيه على عظم شر أهل الأهواء، وحذروا من مجالستهم، ووقفوا بالمرصاد لكل من يحاول بثّ الشبه والاستشكالات المشككة في هذا الدين، كما هو شأن أهل الكلام، وسمتهم الظاهرة، ومن الأمثلة البارزة على ذلك موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- من صبيغ اليربوعي[1]، حتى قال الإمام الشافعي -رحمه اللّه تعالى-: "حكمي في أهل الكلام حكم عمر في صبيغ"[2]، وما جاءت النصوص العظيمة من الكتاب والسنة وآثار السلف تحذر من أهل الأهواء تحذيراً شديداً، وتنهى عن مجالستهم والاستماع إليهم؛ إلا لما في هذا من مخاطر جسيمة، وأضرار بالغة على الفرد والأمة، منها:

أن من استمع إلى أهل الأهواء والبدع فقد يتأثر بأقوالهم الضالة، وآرائهم المنحرفة، فيدين بعقائدهم، ويسير في ركابهم، وتلك واللّه الخسارة الحقيقة التي لا تُعوَّض، والمصيبة الداهية التي لا تُقدَّر، وإذا لم يتأثر بأقوال أهل البدع فإنه على أقل تقدير وأقرب احتمال يبقى متشككاً في أمر دينه وعقيدته الصحيحة.

ومن تلك المخاطر أيضاً: انخداع العامة والجهلاء بأهل البدع إذا رأوا أهل

(١) انظر رقم -٧٠٦-،-٧٠٧-.

(٢) انظر رقم -٧٠٨-.

الفضل والصلاح يجالسونهم، ويستمعون لهم، ويغدون ويروحون إليهم.

ومن تلك المخاطر والآثار السيئة: تكثير سواد أهل الأهواء، وترويج أسواقهم.

وعلى منهج الصحابة -رضي الله عنهم- هذا الموافق لهدي الكتاب والسنة؛ سار من جاء بعدهم من السلف الصالح أهل السنة والجماعة، جيلاً بعد جيل، وقرناً إثر قرن.

وأختم هذه الدراسة بذكر سرد موجز لنماذج فذة، وأمثلة رائعة تبين شيئاً يسيراً من تلك الجهود العظيمة المخلصة التي بذلها ذلك السلف الصالح لصون هذا الدين، والمحافظة عليه، وحماية جناب عقيدته:

* تعظيم شأن السنة حساً ومعنى، تعظيماً حقيقياً، يدعو إلى الإعجاب والإجلال، فمن التعظيم الحسي للسنة حرصهم الشديد للغاية على تأدية ألفاظها كما سمعوها، وكراهة بعضهم التحديث على غير طهارة، وكراهة بعضهم التحديث في حال القيام، بل كان بعضهم إذا رأى من يحدثهم قد انشغلوا عنه غضب وترك التحديث، لأنه يرى أن هذا التصرف لا يتناسب مع توقير السنة، أما التعظيم المعنوي للسنة فهو ما اتفق السلف عليه قاطبة من اعتقادهم أنها وحي يجب تصديقه، وقبوله، والعمل بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، والرجوع إليه عند الاختلاف، والاحتكام إليه عند التنازع.
* الترغيب العظيم في التعلم، ونشر السنة، وإحيائها وتذاكرها لئلا تندرس، فتروج سوق الجهل والبدعة.

* الاهتمام الكبير بالإسناد، إذ هو من أعظم الأسباب لانتصار الحق وأهله، واندحار الباطل وأهله من أرباب الأهواء والمذاهب الضالة.
* التدافع عن الفتوى ورعاً، وخوفاً من آثارها.
* الترغيب الشديد، والحث العظيم للمسلم أن يعوِّد نفسه قول: (لا أدري). وبالتالي:
* التحذير الشديد، والترهيب العظيم من التكلف، والقول على اللّه -تعالى- أو على رسوله -ﷺ- بلا علم.
* الخوف العظيم من وقوع خطأ أو زلة من عالم، إذ أن صدور هذا منه ليس كصدوره من غيره، فقد تكون هذه الأخطاء والزلات سبباً لضلال كثير من الناس، وافتتانهم بها، مبتعدين عن هدي الكتاب والسنة، وكان من الواجب أنْ يعلَموا أن كلاً يؤخذ من كلامه ويرد إلا رسول اللّه -ﷺ-، وأن يَعْلموا أن العالِم بشر لا عصمة له، فيجوز عليه الخطأ والنسيان والسهو والغفلة، لذا يجب الحذر من تلك الأخطاء والزلات إذا وقعت، وليتها لم تقع.
* التحذير من المجادلة والمراء والخصومات، لما لها من آثار سيئة على الفرد والجماعة، فهي من أعظم أسباب تفرق المسلمين واختلافهم، وإيجاد العداوة والبغضاء فيما بينهم.
* الترهيب العظيم، والزجر الشديد عن توقير واحترام أهل الأهواء والبدع، بل عن مجرد المجاورة والمجالسة والاستماع إليهم، وقد ثبت عن جمع من

السلف أنه كان يضع أصبعيه في أذنيه عندما يتكلم أهـل البـدع، أو يُنقـل إليه كلامهم، كل هذا خوفـاً علـى ديـن العبـد أن يتلـوث، أو يتـأثر سـلباً بتلك الأقوال، لأن القلب ضعيف.

* تعظيم نعمة اللّه -تعالى- للعبد أن سلّمه من الأهـواء والبـدع، كمـا أنعـم اللّه -تعالى- عليه بأن هداه للإسلام، فالنعمتان في غاية العظمة.

هذا وختاماً أسأل اللّه -تعالى- أن يعيذنا جميعاً مـن الفـتن مـا ظهـر منهـا وما بطن، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيـا وفي الآخـرة، كمـا أسـأله -عزوجل- أن ينصر دينه وكتابه وسنة نبيه -ﷺ- وعبـاده الصـالحين، وأن يرد المسلمين إلى دينهم الصحيح -اعتقاداً وقولاً وعملاً- رداً جميلاً، والحمـد لله رب العالمين، وصلى اللّه وسلم وبـارك علـى عبـده ورسـوله نبينـا محمـد وعلى آله وصحبه أجمعين.